مفاخر اور الكلدانيين

المباحث الأثرية في مدينة ابراهيم الخليل تسفر

عن أدلة جغرافية تؤيد رواية الطوفان

لا يزال الخيال رغم فوز الطيارين وسائقي السيارات أسرع مطيّة يمتطيها الانسان . فلنطلق بخيالنا الزمان والمكان ولنتصور اننا واقفون على اطلال اور القديمة ، السابقة لبابل ونينوى وبغداد ، التي كانت في العصور الخالية عاصمة لأعظم دولة نشأت في الشرق المتوسط القديم

ولنتصور كذلك اننا نخطينا مفاوز الرمل وكثبانهُ التي تغطي الآثار القديمة ووقفنا على اعلى بناء شيّد في تلك المدينة هو برج زجّورات الذي قاوى اياب الدهر خمسة آلاف من السنين . من اعلى هذا البرج نشرف على الأفق البعيد فتتولانا الدهشة وقد قرأنا في الصحف عن مفاخر اور ومظاهر عظمتها القديمة ان نراها ركاماً من الأطلال . قفر جدبٌ يمتدُّ الى ابعد ما يمتد اليه البصر . فلا ماء ولا خضرة ولا اثر من آثار العمران. انك لا تشعر بأن للحياة دبيباً فيما حولك الا حين تسمع عواء الثعالب بين الأطلال تبحث عن الطعام . ولكنك اذا استطعت ان ترتدّ خمسة آلاف من السنين الى الوراء انقلبت الحال غير الحال وتبدل الاقفار والسكون بالحركة والحياة

ولنفرض أن هذا الانقلاب وقع عند الغروب ، في تلك الساعة التي ينتعش فيها الشرق وينفض عنهُ آثار الحرّ المضني في النهار ، فاننا نرى بدلاً من الصحراء القاحلة وركام الاطلال المتهدمة ، جنة خضراء تخترقها ترع الريّ . ثم تتحوّل قليلاً الى المرفإ على اكبر هذه الترع — وهي الترعة التي تصل المدينة بالخليج الفارسي — فنشاهد على لوحة الشفق الوردية صور السفن المظلمة مربوطة في مستقرها وهي تميد مع نسيم الاصيل . وعلى الشواطىء نبصر بالعمال نصف عراة متشحين بقمصان من جلود الغنم

واذا ارهفنا آذاننا سمعنا العمال يقسمون بلغة خشنة النطق هي اللغة السمرية لسان الأقوام المسيطرين على تلك البلاد . ان حيوية هذه الأقوام تدلُّ عليها عضلات العمال، ودقة الكتاب وهم يعدّون القوائم، وحسن رصف البالات التي تحتوي على الذرة والصوف والجلود والحزف في المخازن المشرفة على الترعة

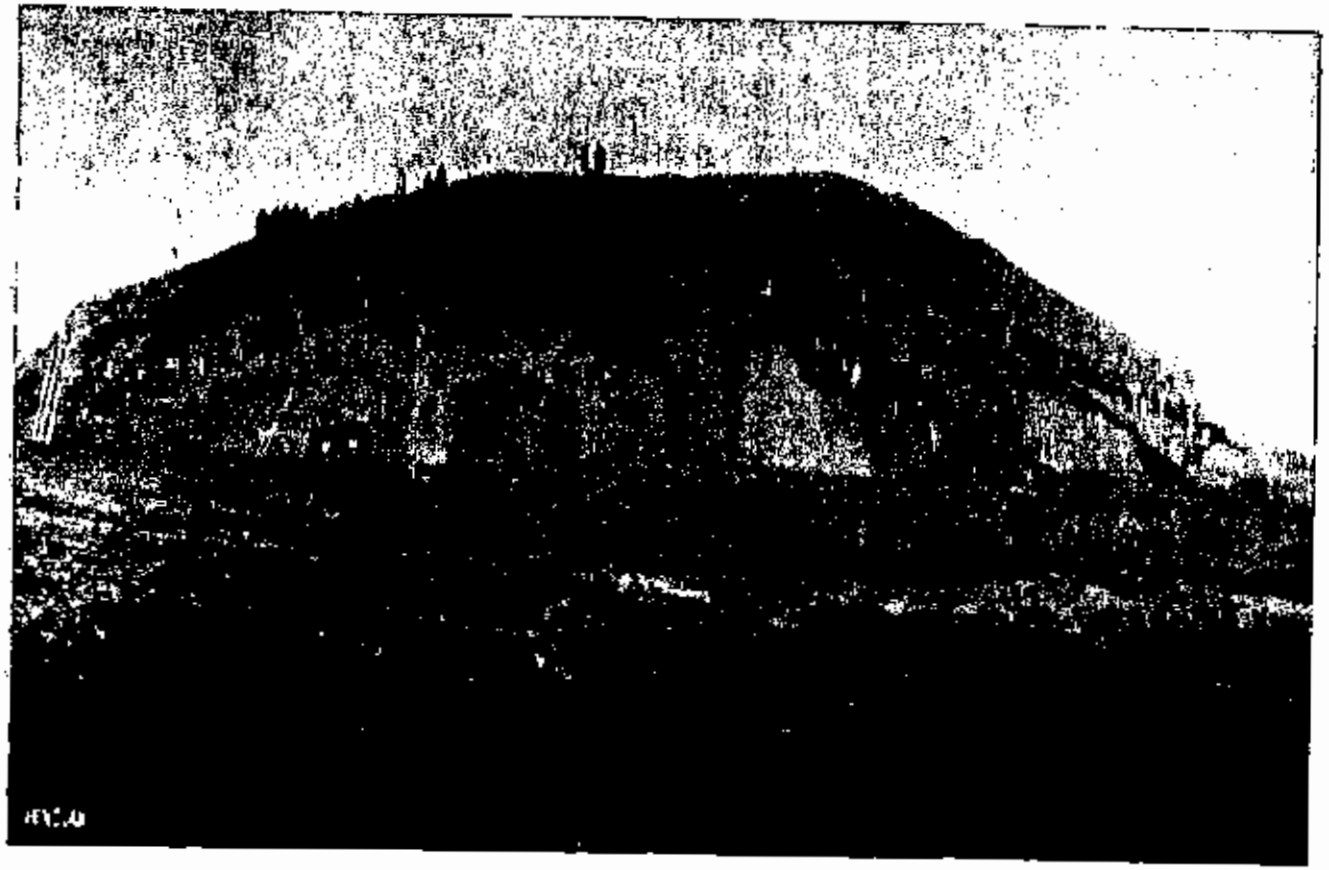

« زجورات » البرج الذي بناهُ الملك اورنامّو . ويجري فيهِ جانب من البحث في آور

تتمة الصفحة ٩٧٤

هذه لمحة فقط نمحها من خلال الشفق المنصرم على نور المصابيح الزيتية الضئيل . ولكنها لمحة كافية . لأن الآثار التي تستخرج كل سنة من الأرض تؤيد هذه اللمحة التي لمحناها وأكثر منها . هذه هي اور كما نراها بين المخيلة والعقل . والصورة ليست خيالية لأن الوثائق والآثار والأدوات التي كشف عنها تؤيد كل دقيقة من دقائقها

* * *

لنظرة الى الخريطة ، تكشف لك عن حسن موقع هذه المدينة القديمة . انها واقعة وراء ضفة الفرات الى الغرب في الجانب الجنوبي من السهل الذي تكوّن من رسوب طمي الرافدين (دجلة والفرات). فجنوب العراق من الوجهة الجيولوجية حديث العهد. كان قبلا قعراً للبحر فارتفعت ارضهُ برسوب طمي النهرين حين فيضانهما فانحسر ماء البحر رويداً رويداً عنهُ وصار جزءاً من اليابسة

ويظن العلماء انهُ منذ ثمانية آلاف سنة كانت مياهُ البحر — خليج فارس — قد انحسرت الى درجة مكنت سكان البلاد المجاورة من دخول هذه البلاد الخصبة وجني خيراتها بالزراعة. فالفصل الاول من سفر التكوين يحدثنا في العدد التاسع قائلاً : « وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة ... وقال الله لتنبت الارض عشباً وبقلاً يزرع بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل (يؤتي) ثمراً كجنسه . . . . »

ان الصورة التي يرسمها واضع سفر التكوين تنطبق في الواقع عمّا يعرف عن انحسار ماء البحر عن جنوب العراقين وظهور اليابسة ونموها من مستنقعات الى حقول خصبة

ان الخرافات القديمة تؤكد للباحثين ان مدينة اور كانت اولى المدن التي نشأت في هذه الارض الجديدة : بل هي في نظام البابليين الكوني نشأت بيد الخليقة والخليقة في نظرهم هي خليقة بلاد بابل . وزد على ذلك ان مدينة اور اول مدينة بعد الطوفان تستطيع ان تفخر بامبراطورية سيطرت عليها

وقد ايدت المباحث الاثرية الحديثة اقوال الوثائق التاريخية القديمة اذ اثبتت ان اور بنيت اولاً على جزيرة في مستنقع . فارتفاؤها واتساعها بعد ذلك من العجائب

اما القوة التي كانت باعثاً على نشأة اور ونموّها من قرية حقيرة الى مدينة ثريّة لا تتقدم عليها مدينة اخرى من عواصم العالم القديم فهي عبقرية الشعب الذي نزل في تلك البلاد الجديدة الخصبة . وهذا الشعب هو الشعب الشمري (السومري وقد قال العلامة الكرملي انهُ الشمري فجاريناهُ) الذي لمحنا بعض افراده على المرقاب النهري في مدينة اور القديمة. ولم يكن الشمريون الشعب الاول الذي نزل في هذه البلاد ولكنهم كانوا الشعب

الاول الذي نزلها وكشف قبل غيره من الشعوب عن فن الكتابة وصناعة المعادن . وكان كذلك اول من عمل على استنباط كنوز الارض بمعرفة وذكاء

هم الذين بنوا المدن الاولى فيها . هم الذين لمّسوا شمل البلاد وعلّموا حيالهم اساليب الكتابة والتعدين وفنون الحرب . هم الذين انشأوا الترع لري السهول بماء الفرات . وهكذا تلت عصور التحوّل بعضها بعضاً . انحسر ماء البحر اولاً فظهرت اليابسة مستتقاً متسع الاطراف ثم تحوّل المستنقع الى سهل جاف قاحل ثم تحول السهل بعبقرية الشمريين الى ارض تفيض لبناً وعسلاً واصبح مركزاً لامبراطورية عظيمة . كان الفضل للطبيعة في احداث وجوه التغيير الاولى ولكن الشمريين اقتدوا بالطبيعة فساعدوها فخلدوا بآثار اقتالهم

كان هؤلاء الشمريون من سبع سنوات شبأ لا يعرفهُ الاّ طائفة قليلة من العلماء وقفت حياتها على حلّ كتاباتهم السفينية . ولكن اسمهم اليوم مشهور عند كل رجل مثقف يهمهُ ان يبقى مجارياً لمكتشفات العلماء القديمة والحديثة . ومع ذلك لا تزال خطورة التنقيب عن حضارتهم في مستهلّها . تصوّر ايها القارىء ان حادثاً حدث فطمر حضارة اميركا الشمالية ومنشآتها وتعاقبت العصور فزالت صورتها واثرها من الاذهان ثم عثر طائفة من العلماء على هذه الآثار واخذت رويداً رويداً تضع رسماً للحضارة الاميركية الزاهية لابناء القرن السبعين . هذا العمل يشبه ما يعملهُ علماء الآثار على اطلال اور الكلدانيين الآن

ومن بواعث الفخر لانكلترا والولايات المتحدة ان شعبها بذلا غير قليل من المال لارسال بعثة اثرية الى اطلال هذه المدينة القديمة برعاية المستر ليونرد ولي . وقد دالت البعثة بحثها هناك من سنة ١٩٢٣ فعثرت على آثار عجيبة تضعها في اعلى مقام بين آثار الحضارات القديمة دقة واتقاناً في الصنع وجمالاً في المنظر ومكانة بين وثائق التاريخ

ففي سنة ١٨٥٤ عين المستر تيلور قنصل انكلترا في البصرة موقع اور الجغرافي . ذلك انهُ عثر على الواح دلتانية اسطوانية نقش عليها وصف بعض الحوادث التي حدثت في اور سنة ٥٥٠ حين عاد احد ملوكها الاقدمين الى عرشهِ في برج زجورات . فأدرك الخبراء في الحال قيمة هذا الاكتشاف ولكن قرّاء التوراة دهشوا حين وجدوا ان موقع اور الكلدانيين مدينة ابراهيم الخليل هو هو موقع هذه المدينة التي عينها المستر تيلور فثبت كذلك ان مدينة البطريرك اليهودي الكبير لم تكن من بنات الخيال بل كانت مدينة في مصاف اعظم عواصم الحضارات القديمة

فمدينة اور مقترنة في اذهان اليهود والمسيحيين بثلاثة امور هي الخليقة والطوفان وابراهيم الخليل . والمباحث الجديدة تلقي كثيراً من النور على هذه المسائل القديمة . على ان هذا بحث يتناول نشأة اور فلنحول النظر الى ازدهارها ثم انحطاطها وتلاشيها

تمثال كبش يعيد الى الفخر الكبش الذي
قدمهُ إبراهيم ضحية . وهو خشب مطلي بالصدف واما اللحية
والقرنان والناصية فمن اللازورد والرأس والرجلان من الذهب

مقتطف فبراير ١٩٣٠ — أمام الصفحة ١٧٦

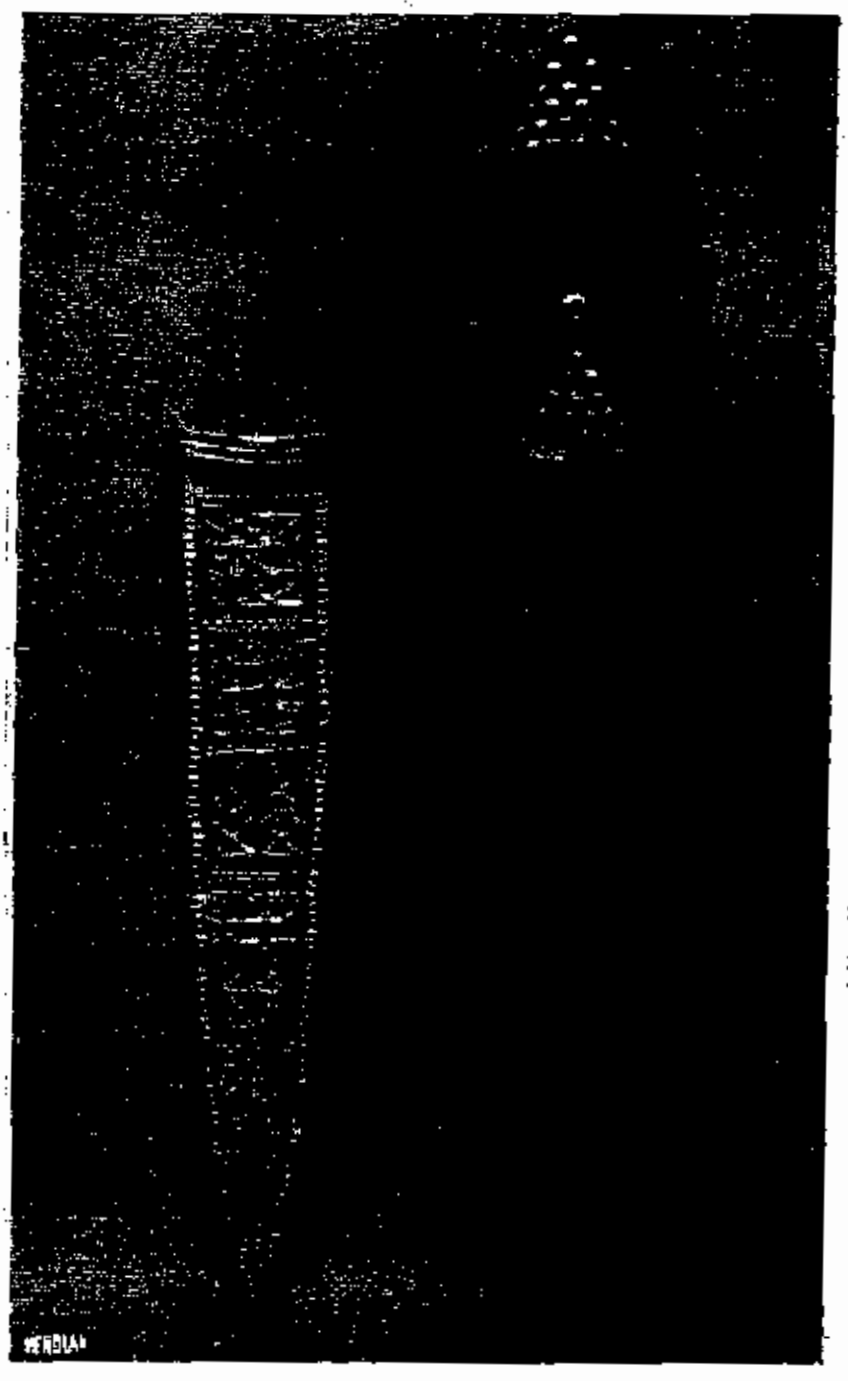

خنجر ذهبيّ منزّل باللازورد وغمده مصنوع من الذهب
وجد في آور . وطول الخنجر ١٤ بوصه ونصف بوصة

كيف اتفق ان مدينة هذا مقامها في العالم القديم وهذا اثرها في اذهان الامم تبقى الى سنة لا ندري اين عينها او اثرها ؟ ان آخر من ذكر اور كاتب غير مشهور يدعى يوبوليس من كتاب القرن الثاني ق . م . والظاهر ان موقع المدينة اصبح مجهولاً بعد ذلك التاريخ والتعليل سهل جداً . ان العامل الذي كان سبباً في قيام المدينة ونشأتها هو العامل الذي قضى عليها بالدمار والاضمحلال . ان اور كانت وليدة نهر الفرات . نشأت في السهل الذي تكوّن من رسوب طمي النهر بعد انحساره ماء البحر عنهُ كما تقدم . فكلمات عمر الحيام تنطبق عليها حيث يقول : كانت واقعة على منطقة ضيقة خضراء تفصل بين القفر والعامر

فهذه المنطقة الخضراء التي نشأت فيها اور مدينةً بوجودها لنهر الفرات . والانهر العظيمة قوية جبارة وخائنة لا ترعى الذمام في آن واحد . فقد تحوّل تيارها تندم غداً ما بنتهُ اليوم . انك لا تجد في تاريخ العراقين في خمسة الآلاف السنة الماضية حقيقة اوضح من اعتماد الدول التي قامت فيه على نظام الري . فدول السومريين والبابليين والاشوريين والفرس واليونان والاتراك كانت تنهض وتدول وفقاً لمقدرتها على السيطرة على النهرين . وما كان يواجههُ الدول القديمة من المشكلات من هذا القبيل يواجه بريطانيا العظمى الآن

ولم تكن اور شاذة عن هذه القاعدة العامة . فقد كان موقعها في احد الازمنة الغابرة يبعد خمسة اميال عن ضفة الفرات الشرقية . ولكنهُ الآن يبعد خمسة اميال عن ضفته الغربية . ففي خمسة آلاف سنة انتقل مجرى النهر — الذي كانت تعتمد عليه في الزراعة والتجارة — عشرة اميال من الغرب الى الشرق . ومن اقدم الايام كان نظام الري فيها نظاماً دقيقاً جداً يحتاج الى ادق ضرب من الاشراف والانتظام لحفظه . فلما اختل النظام في المدينة اختلّ نظام الري فاخذت اور تفقد الاركان التي قامت عليها عظمتها . ومن الثابت انهُ لما اقبل القرن الخامس قبل المسيح كان الامر قد اصبح فوضى وعاد الحكام لا يعنون بالمحافظة على الزرع فلم يبق في اور الاّ طائفة قليلة من السكان يعيشون فيها عيشة فقر وعوز

واخيراً مات هؤلاء او فرّوا في طلب الرزق . واصبحت اور بقعة قاحلة لا يقربها حيٌّ الاّ عالم الآثار وهذا في العصور المتأخرة فقط

ذلك ان احوال الجوّ في الصيف تمنع كائناً من كان ان يقوم بأي عمل فيها لان العواصف الرملية تهبُّ فيها خمسة ايام من كل اسبوع . فتدفع الرياحُ الحارة الرملَ الناعم بعنف فلا يجرؤ على مواجهتهِ الاّ من اصيب بدخل في عقله . وقد تبلغ سرعة ذريرات الرمل مبلغاً يدمي الآذان والوجوهَ اذا اصابها ويصعب عليك التنفس وتغيب عنك معالم الاشياء حتى يتعذر عليك ان ترى كفك اذا مددت ذراعك

لقد جاء في بعض الخرافات العربية القديمة ان عاصفة من الرمل طمرت مدينة عاد فاصبحت بعد العاصفة ولا عين لها ولا أثر . وقد دلتنا عواصف الرمل في اور ان الخرافة العربية عليها مسحة قوية من الحقيقة . فانا نقضي ثلاثة ايام كل خريف في تنظيف بيتنا المقفل من الرمل الدقيق الذي دخله من الشقوق الدقيقة وكثيراً ما كنا نجد الرمل في بعض النواحي يغطي البيت من خارجه حتى سقفه

وهذا يعلل لنا نجاة اطلال اور من نهب الناهبين كما حدث في اطلال المدن القديمة في مصر وسوريا وغيرها حتى وفي العراق نفسها . فالآثار التي فيها لا تزال سليمة كما كانت في القرن الرابع قبل الميلاد الا ما تركته فيها يد الدهر من اثر

ومن المستطاع تعيين تاريخ المدينة بين سنة ٣٥٠٠ وسنة ٤٠٠ قبل المسيح . فالمصادر التي يعتمد عليها كثيرة وهي الآثار والاطلال التي لا تزال ماثلة للعيان او عثر عليها في اثناء الحفر والكتابات القديمة والمعاصرة لادوار تاريخها المتعاقبة

وهنا لابدَّ من كلمة عن لغة السمريين الآنف الوحة عنها لفهم تاريخهم . فالسمريون لم يستعملوا ورقاً او رقًّا للكتابة حتى ولا صفحات نبات البرديّ الذي كان خاصًّا بمصر دون العراق . ولكنهم لما استنبطوا الكتابة اخذوا اسهل المواد تناولاً ، اخذوا الدلفان من تحت اقدامهم وصنعوا منهُ الواحاً تشبه الواح الصابون المكعبة ثم نقشوا عليها رموزهم بقلم معدني محدَّد

ومثل الكتابات القديمة كانت كتابتهم اولاً صوراً تعبر كل صورة عن الشيء الذي تمثلهُ ثم صارت صوتية . اي ان الصورة التي كانت ترسم كانت تمثل صوتاً خاصاً ومن صوتين او ثلاثة اصوات اي من صورتين او ثلاث صور تتألف كلمة جديدة لا يستطاع تصويرها

وقد افضى هذا الاسلوب الكتابي الى تعقيد كبير في اللغة وكتابتها وخصوصاً لما اخذها بعض الشعوب السامية واستعملها لكتابة لغتها . ولعلَّ هذه الصعوبة تعلل لنا ضعف الآداب البابلية القديمة . فموضوعات الطوفان والخلق ظلت مطوية لم تعالج معالجة فنية حتى جاء العبرانيون بلغتهم الابجدية وفعلوا ذلك . اما الكتابات القديمة التي يعتمد عليها الباحثون فاكثرها مجموعات جمعها الكتاب الاشوريون في خزانة اشور بانيبال بنينوى في القرن السابع قبل المسيح . فهؤلاء الكتاب عنوا عناية كبيرة بنسخ الكتابات والتواريخ التي شرع فيها ١٥٠٠ سنة قبل عصرهم . وقد استعان العالم الاثري الحديث بالعالم الفلكي الحديث على ضبط الجداول الفلكية والتواريخ المذكورة في هذه الكتب

التتمة في الشهر القادم . تحتوي على وصف اهم الآثار التي كشف عنها ومن اهمها كتابة منقوشة على لوح خزفي مشوي فيها وصف للطوفان يشبه الوصف الذي في سفر التكوين